# العثمانيون والحراك الفكري والأدبي في الجزائر

أ.د/ فتحي محمد

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس

خلاصة:

جاء العثمانيون إلى الجزائر لدحر الأسبان والحد من نفوذهم في حوض المتوسط، لكنهم ظلوا منكفئين على أنفسهم طيلة تواجدهم، فلم يشركوا السكان في إدارة بلادهم ولم يختلطوا بهم لا اجتماعياً ولا دينياً فاحتفظوا بمذهبهم الخاص –الحنفي–، ولم تكن لهم عناية بالتعليم وأهله، فركدت الحياة الفكرية وظلت سطحية، ولم يعرف الأدب العربي تطوراً يذكر طيلة تواجدهم لأنهم تجاهلوا لغته فلم يتذوقوا سحر بيانها، فتراجع آداؤها الإبداعي.

تباينت مواقف النخب الفكرية والأدبية بهذا القدوم الأجنبي بين مهلل ومرحب كالعائلة الفكونية، وبين رافض ومعارض كالشاعر المنداسي الذي هجا العثمانيين بقصائد شعرية لاذعة، كما رفعت بعض الطرق الصوفية لواء المقاومة الشعبية للعثمانيين بالقول والفعل، على الرغم من ذلك نسجل استفاقة فكرية وأدبية للجزائر العثمانية في عهدها المتأخر مع الباي محمد بن عثمان الكبير ومن أتى بعده، فاستقطب الأدباء والشعراء وأشركهم في حروبه، فتواردت عليه قصائدهم بالمدح والثناء وكساهم بجزيل هباته وعطاياه خلافاً لسابقيه، لكن دون جدوى.

الكلمات المفتاحية: العثمانيون –الفكر –التعليم –الأدب

**الحضور السياسي العثماني في الجزائر:**

ظهر العثمانيون كقوة حربية ضاربة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وبسطوا نفوذهم على البلدان المغاربية التي تهاوت دولها القديمة في أوائل القرن العاشر الهجري، ويرجع أهل التاريخ الوجود العثماني في الجزائر إلى( 922 هـ / 1516م) وامتدت حدودهم الغربية إلى وجدة ،وأحياناً إلى فاس ،*ولولا خوف السلطان العثماني من انفصال المنطقة عنه*[1]لأخضع المغرب الأقصى إلى نفوذه .

دخل العثمانيون الجزائر بطلب من أهلها حماية لبلادهم من التحرش الإسباني الذي استفحل خطره، بعد سقوط غرناطة في جانفي (897 هـ / 1492م) آخر معقل للأندلسيين، وقد كان رد الفعل طبيعياً للأسبان بعد انتصارهم على المسلمين مواصلة للغزو والقيام بحركة مد في البلدان المغاربية، لقطع خط الرجعة عن الأندلسيين، ومظهرين لأهدافهم التوسعية ذات الصبغة الصليبية.

اصطدم الدخلاء بمقاومات شعبية غير رادعة، فدحرتهم القوة البحرية الوافدة، إلى غير رجعة سنة (1791/1205م)، من الجزائر، بعد ما ذاق السكان منهم ألوان الذل والقهر بمختلف ضروبه وأصنافه.

ارتبطت الجزائر بالدولة العثمانية ودياً زهاء ثلاثة قرون، أضحت خلالها قوة بحرية فاعلة في حوض المتوسط، فخطبت ودها ممالك أوروبا وأمريكا رغبة في حماية سفنها في البحر المتوسط، وما حادثة المروحة المفتعلة بين داي الجزائر وقنصل فرنسا التي كانت تماطل في دفع مستحقات واردتها من القمح الجزائري إلا دليل على قوة الجزائر، وعلى ازدهار الزراعة ببلادنا في ذلك العهد، والمفترض أن من كان غذاؤه من فأسه فقد حاز قسطاً من التحضر!

لنتساءل عن موقف النخبة العلمية والأدبية من السلطة الوافدة، وما موقف الأخيرة من هؤلاء خلال مسيرتها الطويلة؟ وكيف ارتسم وجه الثقافة والأدب خلال التواجد العثماني في الجزائر وهل كان له منهج ثقافي وفكري من خلال نظرته إلى التعليم تحدد من خلاله البعد الوجودي في الجزائر، كشأن السابق واللاحق؟ وهل خلقت بلاطاً أدبياً كعادة ملوك العرب والمسلمين في تاريخهم؟ ذلك ما نحاول الوقوف عليه في هذه القراءة المتواضعة، لعلنا نيسر السبيل لغيرنا، فالموضوع يستحق دراسة أكاديمية إضافية في تصورنا، لأن الأدب الجزائري لازالت أرضه ضحلة في حاجة إلى السقي بحبر الباحثين في هذا العهد تحديداً.

**الوجه الثقافي والأدبي:**

من المعروف بداهة أن الحضارة العثمانية مزيج من الحضارات الشرقية الفارسية والبيزنطية والعربية، فهل استفاد المجتمع الجزائري من هذه المزيج الحضاري؟ أو أنه ارتبط بالمجتمع المسلم؟ وظل منغلقاً على نفسه طيلة العهد العثماني.

لم يتطلع الحكم العثماني إلى رياح التغيير التي كانت تهب على المجتمعات الغربية وتعصف بكل ما هو عتيق من خلال الثورة الفرنسية الكبرى التي أنارت وجه أوروبا وفتحت مجتمعاتها على عهد جديد، ممتطية رياح العلم بغية التوسع الخارجي لبناء الداخل، وفي سياق معاكس للتيار نلفي كاتب باي الغرب يدعو بالويل والثبور على الفرنسيين وثورتهم ، *وأن يبقي الله كيدهم بينهم ويشغلهم بأنفسهم ،لأنهم قتلوا ملكهم ونفوا علماءهم* (1) (رجال الكنيسة)، والمريب في الأمر أن هذا الباي لم يكن متعصباً ولا منغلقاً على ذاته ، فقد زار ليفورن ( livourne) ومرسيليا وعلى أساسها تعلم شيئاً قليلا من اللغة الفرنكية( الفرنسية) وكثيراً من الإيطالية ، *وكان يقدر للأوربيين إجادتهم للتسيير الإداري* (2)،غير أن هذا التقدير والإعجاب ظلَّ سطحياً، لأنه لم يبدد الفكر المتحجر والقناعات الثقافية المغلقة التي لم تواكب روح العصر وتطلعات الشعوب، يتجلى هذا الفكر عند ابن سحنون كاتب الباي المذكور في إنشاده لقطعة شعرية إبان الثورة الفرنسية ،جاء فيها وهي على بحر الرمل :

*إِنَّمَا الرُّومُ أُنَاسٌ حَمْقَا ـ لَيْتَهُمْ إِذْ حَدَّثُونَا سَكَتُوا* (3)

نتساءل وفق هذا المنظور الفكري المتكلس، هل يطمح بالبلاد إلى درجات الرقي والسؤدد؟ جثم حاملوا هذا الفكر على كلكل الجزائر مدة فاقت بقاء فرنسا بعدهم ثلاث مرات، أيهما وفق في فرض ثقافته ولغته؟!وماذا يفقه الشعب الجزائري من اللغة التركية الآن؟!!وما ذا تبقى من عوائدها في هذا المجتمع؟! فإذا كان التسجيل للتاريخ، فمن حق الأجيال الحكم بالقول: لو لم يطرد هؤلاء الدخلاء الأسبان لكنَّا استفدنا بلغة أوروبية ثانية، فما الفرق بينهم وبين الأتراك؟ يفرقهما الدين ويجمعهما البطر والاستغلال المقيت للمستضعفين، وماذا استفاد المجتمع الجزائري من آلاف الأسرى من مسيحي الغرب الوافدين قسراً على الجزائر، طيلة أمد الحروب البحرية التي توالت عليها أجيالا متعاقبة مشكلين فسيفساء اجتماعية متباينة الأجناس، فهل استوعبت السلطة خبراتهم ولو جزئياً في المنظومة الثقافية أو التعليمية، أم اقتصرت خدماتهم على القصر السلطاني فيما يسمح به الظرف أو الوضع، ألم يفد كفار قريش أسرى بدر أنفسهم بتعليم بضع من صبيان العرب المسلمن؟!

يلتمس سعد الله العذر ويعلل ذلك بقوله: أن العثمانيين في اسطنبول لم يشجعوا الثقافة والتقدم الفكري والفني، *لأن ذلك خارج عن نطاق العصر بالنسبة إليهم، ونحن إذا طلبناهم به كنا نطالبهم بما لم يخلقوا له* (4)، ونحن نقول: رب عذر أقبح من ذنب، والمقام لا يسمح بأكثر من ذلك.

ولعل سعد الله أصاب كبد الحقيقة في مقام آخر حينما أرجع ظاهرة الانغلاق على الذات إلى الحاجز الديني الذي عدَّه أقوى حاجز بين الجزائر والغرب في منع تسرب الأفكار الأوروبية إلى مجتمعاتنا، *وإذا حدث شيء من ذلك فإنه سرعان ما يصرف على أنه من إنتاج الكفار* (5)، وبكل أسى وحيرة نقول إن هذه المفاهيم المتكلسة لازالت مستشريه في مجتمعنا وفي بعض الأذهان المجبولة على العيش في سراديب الماضي بكل أبعاده.

إن جوهر الدين بمفهموه الشامل يكمن في تنوير العقول وعدم الحجر عليها ، نلفي محمد بن العنابي (1189- 1267هـ /1775-1851م) وهو شيخ الإسلام مفتي الأحناف (6) وقاضيهم بالجزائر، فقد عاصر الثورة الفرنسية الكبرى ، واستنكر جمود عقلية علماء المسلمين أمام تقد م العقل الأوربي ، ونادى بعدم الانغلاق أمام الحضارات المعاصرة وضرورة تعلم اللغات والعلوم الآلية والصناعية، وأن التمسك بالتقاليد القديمة يلحق الهزيمة والهوان بالمسلمين ، *وهو أمر ضد الدين وضد الرجولة* (7) وفحوى الكلمة الذود عن الهوية الوطنية ، وعاتب المتمسكين بالمفاهيم البالية، ومن السائرين في درب التجديد والإصلاح نذكر كذلك حمدان بن عثمان خوجة(1840 هـ/1256)،الذي كان على صلة بأحداث أوروبا ومعجباً بتطوراتها السياسية والفكرية ، ما يدل على أن الجزائر لم تكن أرض يباب خلواً من أهل الفكر والأدب والعلم في شتى ضروبه وأصنافه المعرفية.

وجد العثمانيون الجزائر منهارة البنيان سياسياً وعسكرياً ، قوية الأركان في بناها الثقافية والأدبية غنية بحواضرها العلمية والثقافية، فالإشعاع الزياني في تلمسان والحفصي في قسنطينة المدينة التي اكتسبت شهرة علمية في العالم الإسلامي *قد لا تضاهيها سوى شهرة فاس والقاهرة* (8) يلقي هذا الإشعاع بظلاله الوارفة على ربوع الجزائر شرقاً وغرباً، التي لم تكن أرضاً قاحلة لا ثقافة فيها ولا أدب ولا فن ،إلا قراءة القرآن والمتون اللغوية والفقهية، كما وصفتها الأقلام المغرضة ، *ولو كان للجزائر قبل العهد العثماني إلا ابن خميس التلمساني* (9) وفي آخره إلا ابن ميمون لكفاها فخراً.

حافظ العثمانيون طيلة تواجدهم في الجزائر على انطوائهم وانعزالهم عن المجتمع الجزائري ،فلم يجهدوا أنفسهم في تعلم لغته أو معرفة عوائده ،واعتمدوا على رابطة الدين في إطار الخلافة الإسلامية والجهاد لجمع الغنائم

و رد الأعادي وفي بسط نفوذهم بالضغط على أبناء البلاد وإرغامهم على الخضوع لسيطرتهم الاستبدادية دون تروٍ أو نظر في مستقبل البلاد والعمل على بنائها وترقيتها ، تمثل عمل هؤلاء الدخلاء في القرصنة وجمع المال بشتى السبل ، معتمدين أيضاً على رجالات الطرق والصوفية كالقادرية والشاذلية وغيرهما لبلوغ الهدف، *فأحاطوا مشيختها بالدعاية ومظاهر الاحترام ورفعوا من شأن قادتها ولم يقصروا في مجازاة خدماتهم بسخاء* (10) تعمية على سياستهم وفظاظتهم التي لفظها الزمن.

لم ينعم المجتمع الجزائري بالأمن والرخاء طيلة العهد العثماني ، بل تدهورت الحياة الاجتماعية والتي أثرت سلباً على الحياة الثقافية والأدبية،فلم يعد العصر عصر إبداع وابتكار ، بل عصر جمود وعقم في الفن والعلم والأدب ،وتمكن الضعف في النفوس والتي انطوت على نفسها وخارت قواها الإبداعية ،يقول الرايس علي البوزريعي: *واعلم أن الأتراك لما تمهد لهم الملك بالجزائر، كثر ظلمهم وفسادهم ... و سألت الناس الله أن يزيل الله ما حل بهم من ظلمهم* ( 11 ) لتفنن الجند في إرهاق السكان بالضرائب، ولشدة التنافر والتطاحن بين العثمانيين وأبنائهم الكراغلة المولَّدين من أمهات جزائرية المتطلعين إلى حكم وطنهم ، ولو حدث ذلك لتغيرت مجريات الحياة العقلية والفكرية والأدبية دون أدنى ريب، *فقد كان الأتراك يستأثرون بكل مصالح الدولة ولا يستعملون أبناء البلاد ،إلا بصفة متعاونين فقط* (12)في حين كانت روما قبل العثمانيين *تشرك أبناء البلاد في الأمور الإدارية في أوسع نطاق* (13) ،ولعل فرنسا استفادت من العثمانيين في إبعاد السكان الأصليين عن سدة الحكم وفي فرض سياسة التجهيل ،والسؤال الذي يفرض نفسه، ما هو موقف السلطة العثمانية من التعليم.؟

**التعليم**

كان التعليم في هذا العهد من اهتمامات المجتمع دون الحكومة، فلم تؤسس له نظاماً يرعاه ولم تكن هناك وزارة ولا إدارة للتعليم لا في اسطنبول ولا في الجزائر، وهو حر يشترك فيه الرسمي وغير الرسمي، *كل يساهم في إقامة المدارس والمساجد والإنفاق عليها من الأحباس، فالأمة كلها مسؤولة عن تعليم أطفالها* (14)، فالمدرسة لا تحكمها جهات رسمية ولا تخضع لتبعات حكومية، فتسييرها من لدن المشياخ القائمين عليها، وقد تعزى العلة لعدم اكتراث أولي الأمر بالعلم وأهله، فاقد الشيء لا يعطيه ولا يقدر العلم إلا العلماء ومن سار في دربهم.

لعل الظاهرة مقتبسة من العهد الروماني ، إذ كانت الدولة لا تتدخل في مسألة التعليم ونشره إلا نادراً وبصورة استثنائية، وقد يتطوع أحد الأغنياء أو جماعة من الأفراد بتأسيس مدرسة والقيام بشؤونها وتحمُّل نفقاتها

بإعداد محلات التعليم وانتداب المعلمين ودفع رواتبهم وأجورهم ، ولم يكن التعليم الروماني مشتملا على درجات واضحة من ابتدائي وثانوي وعالي ،وإذا تكلمنا على جامعة أو كلية قرطاج، *فذلك مجرد قول وتعبير جرت به العادة لا أكثر ولا أقل ليست له رؤية هادفة* (15) من قبل الجهات الرسمية.

نشير إلى أن الفئة العثمانية التي لبثت في الجزائر أحقاباً متوالية لم يتجاوز *عددها الثلاثة آلاف رجل في وقت من الأوقات إلا قليلا* (16) ولا صلة لها بالحياة العقلية ولا بالعلم وتطوراته فهو ليس من أولوياتها، وعلى الرغم من ذلك ظل سوق النشاط الثقافي والأدبي نافقاً باعتماده على جهود أولي الفضل والعزم، فعاديات الزمان وتموجاته لم تثن أهل العلم عن التدريس والتأليف، مع الاحتفاظ ببعض الفتور أحياناً.

**النخبة بين الموالاة والرفض**

أدرك العثمانيون حين وفادتهم من أين تؤكل الشاة، فاستمالوا العائلات الجزائرية المتدثرة بالعلم والفضل والمؤثرة في الخاصة قبل العامة لتمرير سياستهم، فكلما عزَّ خطبهم وتأزم أمرهم استرشدوا بمشورة هذه العائلات في استتباب الأمن، منها *عائلة ابن الفكون* (17) التي اقنعت سكان الشرق الجزائري بضرورة الانصياع للأمر الواقع ومسالمة الوافدين باعتبارهم مسلمين وحماة الدين، فابسم الدين خضع المأكول للآكل.

حازت هذه العائلات الحظوة والدرجة الرفيعة ومن حذا حذوها في جهاز السلطة الجديدة التي احتلت دائرة الضوء في النخبة المثقفة من أهل الفكر والأدب ورجالات الطرق الصوفية والتي تنافست في كسب الموالاة بالمدح والثناء نظماً ونثراً إشادة بمناقب العثمانيين.

وأما من رفض الخنوع والانصياع للعهد الجديد، فقد عُنِّف بالملاحقة والتهجير خارج الديار، فتفرقت النخبة المعارِضة شر مذر في الأصقاع العربية والمغاربية، منهم من فزع إلى المشرق العربي، ومنهم رحل إلى المغرب الأقصى، قاصداً كعبة العلم والأدب، جامع القرويين بفاس، ولعل من أشهر المغضوب عليهم عائلة المقري، التي اشتهرت بالثراء والعلم والأدب والتأليف والدرس والتدريس في الجزائر وغيرها من البلدان العربية، فلا يسمح لنا المقام بالإتيان على كل من سار في هذا المنوال من الأعلام (18).

حملت هذه الهجرات القسرية والطوعية أبعاداً متعددة الدلالات، إذ شكلت صدعاً متباين الأطراف في النخبة المثقفة وأوقعها في ثنائية ضدية بن مؤيد ومعارض لآل عثمان، وبقدر ما كان لهذا الشرخ المؤلم من عواقب

وخيمة على الحياة الثقافية والأدبية لإفقار البلاد وإفراغها من طاقاتها الحيَّة، إلا أنه حمل في طياته نفعاً مفيداً لأنه كان محفزاً هاماً في نماء الحراك الأدبي وباعثاً على حركة التأليف.

أفصح الشعراء عن مقصد يتهم من العثمانيين بالمدح والثناء، أو بالقذع والهجاء يقول: سعيد بن عبد الله المنداسي (19) على البحر الطويل، وهو شاعر الفصيح والملحون في هجوه لآل عثمان.

فـمَا دَبَّ فَوْقَ الأَرْضِ كَالتُّرْكِ مُجْرِمٌ / وَلاَ وَلَدَتْ حَوَّاءُ كَالتُّرْكِ إِنْسَانَا

عَتَوْا وَاسْتَفَزُّوا المسْلِمِينَ مِنَ القُرَى/ وَقَدْ عَبَدُوا حُمْرَ الدَنَانِيرِ أَوْثَانَا

وَاشَيبَةَ التَّوْحِيدِ كَيْفَ تَخَضَّبَتْ / بِأَسْمَرَ كَلْبَاشَا وَظُلْماً وَعُدْوَانَا

ومن الشعراء من أقبل بالمدح والثناء على العثمانيين تودداً وتزلفاً أو رغبة في صنع مجدٍ اجتماعي ولا يسعنا المقام لتقديم نماذج في هذا الغرض.

عرفت الجزائر في أواخر العهد العثماني حياة فكرية محافظة وواقعاً ثقافياً تقليدياً مكتسباً عن طريق أساليب التربية والتعليم المتوارث ، فلقد كانت الزوايا الكبرى والجوامع الرئيسية بالجزائر العثمانية. فضلا عن نشاطها الديني . مؤسسات تعليمية عليا تعمل على تأصيل تراث الفترة الإسلامية السابقة والحفاظ عليه ، فلا يقل مستواها التعليمي من حيث نوعية المعلومات عن مراكز التعليم الرئيسية في المغربي العربي كفاس والزيتونة من حيث المقررات الدراسية التي لم تختلف مشرقاً ومغرباً في مضمونها ومحتوياتها، لوحدة الهدف الذي أنشئت من أجله هذه المؤسسات في البلدان الإسلامية ، المتلخص في العلوم الشرعية ، واللغة العربية وعلومها ، وتشترك مقررات هذه المؤسسات في غياب العلوم العقلية ، والإشادة بالنقلية، يقول الفقيه عبد القادر الراشدي من البحر الخفيف (20) :

خَبِّرَا عَنِ المؤولِ بِأَنِّي / كَافِر بِالذِي اقْتَضَتْهُ العُقُول

مَا قَضَتْهُ العُقُول لَيسَ مِن الدِّينِ / إِنَّمَا الدِّينُ مَا حَوَتْهُ النقُول

إذا كفر هؤلاء بالعلوم العقلية، فما هو حظ اللغات الأجنبية بالنسبة لمعلميهم ومتعلميهم، والتي حث ديننا الحنيف على تعلمها؟!

شكلت الحواضر الجزائرية الكبرى في ا لقرن التاسع كمدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان ومعسكر وغيرها، بيئات علمية لافتة، اشتهرت بمناقبها العلمية الثرية وبسمعة شيوخها وتعدد مدارسها وكثرة طلابها، وبخاصة في فترة حكم الداي محمد عثمان باشا ت (1206هـ /1791م) الذي *عده المؤرخون أحسن داي على الإطلاق* (21) لاشتهاره بالعدل والا نصاف في الفترة الأخيرة من عمر العثمانيين بالجزائر.

وقد لا يقل *محمد بكداش* (22) تأثيراً في الوسط الثقافي والأدبي عن لا حقه عثمان باشا، إ ذ رحبت النخبة بمقد مه وخاطبه الأدباء والشعراء بالفصيح والملحون مهنئين ومستصرخينه لفتح وهران قال الشيخ محمد بن عبد المومن في قصيدة من الرمل يحرضه فيها على الجهاد مطلعها.

*نَادَتْكَ وَهْرَانُ فَلَبِّ نَدَاهَا ـ وَانْزِلْ بِهَا لاَ تَقْصِدَنَّ سِوَاهَا* (23)

ومن المهنئين بفتح وهران الشاعر، محمد بن أحمد البوني بقوله من الكامل:

*بُشْرَاكَ بَكْدَاش قَدْ نِلْتَ المُنَى ـ وَعَمَرْتَ أَرَضَ الكُفْرِ بِالإِيمَانِ. (24)*

*ي*مكننا القول إن لغة الضاد انتعشت في هذا الزمن المتأخر من عمر الدولة الوصية، وهل يجدي ذلك نفعاً في ظل تغيُر الموازين الإقليمية والدولية وضعف السلطة المركزية؟ إنها الانتعاشة التي عصفت بها طلائع الاستعمار الفرنسي على السواحل الجزائرية.

هل مرد إقبال النخبة الجزائرية على بكداش برسائلها وقصائدها، بالترحيب والتهاني لأرومته العربية المزعومة؟، أم لأدبيته وشاعريته؟ أم لفصاحة لسانه وخطابته المسجدية التي استأثرت بالعقول وعلقت بها القلوب؟، أو أنه رجل الخلاص والمنقذ لمدينة وهران من مخالب الإسبان؟ أو أنه استجداء وحمله على البذل والعطاء وإشباعاً لحاجات الخطباء والشعراء المادية والمعنوية، في كونه القائد الذائد عن الدين والعروبة؟ ونحن نستبعد الخصلة الأخيرة، لأنه لم يثبت في منظورنا أن حكام آل العثمان المتقدم والمتأخر أثابوا الشعراء عن قريضهم، من ذلك لم تكن قصيدة المديح أداة للتزلف والتكسب، بقدر ما كانت تعبيراً غير مباشر عن الصراع المعيش داخل المجتمع الجزائري الذي يعيشه المبدع، وقد يرد علوق النخبة بهذا الحاكم، إلى جبلة العرب كونهم *أكثر الأمم اعتداداً بالأفعال التي تتجشم الأنفس فيها المشقة لتنفع غيرها وتريحها* (25)، ولعل هذه النزعة عجلت بحياة بكداش بعد هزيمته الأسبان.

ومن زاوية أخرى نلحظ أن هذا الكم الخطابي والشعري لم يأت طفرة، وإنما انبثق من رصيد إبداعي كامن في النفوس ودال على ثراء الساحة الأدبية الجزائرية ، و لعل هذا ما نلمسه عند الرحالة ابن زاكور الفاسي في رحلته إلى الجزائر في هذا العهد ،إذ أبان عن المستوى الأدبي الذي كانت عليه بلادنا نلفيه يصف علماءها بقوله : ارتعت في رياض آدابهم فتمعت ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت وكرعت في أنهار بلاغتهم حتى رويت وهصرت من أفنان براعتهم ما هويت، وأجاز لي رواية ما لديه العالم الأشهر والعالم الأكبر *أبو حفص عمرو بن محمد بن عبد الرحمن المانجلاتي*(26) فخر الجزائر والأمة العربية والإسلامية.

**مآثر الباي بن عثمان**

من مآثره الحميدة أنه رتب للمدرسين في الجوامع وظائف يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء إلا من كان مستعملا في خدمة ما، فاتسعت بذلك حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة وشرهت لها النفوس وكثر طلاب العلم، وتشوف كل أحد إليه واشتد الحرص على طلبه وتعلمه، بعد أن كانت أنظار الناشئة مشتدة للتجارة، لكون العلم لا يدر رزقاً على المشتغلين به، على الرغم من فرضية طلبه على كل مسلم في منطوق ديننا الحنيف، ومن تركه تحكمت فيه دواعي الجهل.

حفزت هذه العناية السامية الأوساط الطلابية في حب العلم والإقبال على طلبه، وساهمت في إنماء الحركة العلمية والأدبية، وينبئ هذا العمل الاستثنائي عن بعد نظر الحاكم وإدراكه لأهمية العلم في بناء الملك، فلا يقدر العلم إلا عالم أو متعلم، فالبر بالطلبة والإحسان إليهم، يعد من أعظم المزايا التي ينبغي توفرها في أ ولي الحل والعقد لتحريض الناشئة على طلب العلم والتنويه بهم، وتذليل الصعاب العملية التي تعترض سبيلهم في التحصيل وفتح المجال أمام العام والخاص في طرق هذا السبيل.

ومن مظاهر محبة هذا الحاكم للعلم والأدب، أنه كان يشتري الكتب بالثمن البالغ ويستكثر منها ويستنسخ ما لم تسمح نفس مالكيه ببيعه، وكثيراً ما يأمر بقراءتها في حضرته في مجلس حكمه، وإذا انفض الناس تفرد بها، فكانت له نعم الأنيس، ولذلك تجده مستحضراً لأكثر معانيها، *فلا تمر قضية ولا حديث مشهور ولا شيء من أيام العرب وأخبارها وسير ملوكها وأنباء حروبها وأمثالها وحِكمها، إلا وله خبره* (27)، فكان شديد الارتباط بالكتاب لكونه خير جليس.

يظهر النص شغف الباي بالقراءة وحبه للعلوم ، واطلاعه على سير العرب وأخبارهم ، وتأسيه بخلفاء بني العباس ، وبني أمية في الأندلس الذين كانت تعقد تحت إمرتهم المجالس العلمية والأدبية، والترغيب في الكتابة والتأليف والتحفيز عليهما ، يذكر كاتبه أحمد بن سحنون ، ثم أمرني فاختصرت له الأغاني ـ لأبي فرج ـ في نحو الثمانين كراسة، فأثابني بمائة سلطاني ، *وألفت باسمه كتاباً في الأدب سميته عقود المحاسن فلم تسمح الأيام بإيصاله إليه* ( 28) وفي ذلك شحذ لقرائح الكتاب والأدباء الجزائريين على التأليف والإبداع، أو ليس الأدب سلعة يصدق عليها مبدأ العرض والطلب، نفاقها مرهون بمقدار ميل أولي الأمر لها أو حاجته إليها أو قدرته على تقديرها واستساغتها.

وينماز هذا الباي عن نظرائه العثمانيين في كونه محباً للعلم والمعرفة وله دراية بأخبار الأمم وأحوالهم ، لاستئثار بالمصنفات العلمية والمعرفية ، فلم يستبعد العنصر الجزائري كسابقيه من إدارة البلاد ، بل جعل منهم خاوص كتابه ومستشاريه ، فكان قادة جيوشه ، من جهابذة العلم والأدب يصحبهم معه في حروبه ضد المتمردين أو الإسبان الغازين ، وأشرك في فتح وهران مئات من طلبة المعاهد والزوايا ورجال القضاء والتدريس في الكفاح المسلح ، استشهد منهم في ميدان الشرف يوم الفتح، العلامة محمد بن الطاهر بن حواء قاضى مدينة معسكر وأحد أعلامها البارزين.

أدرك الباي أهمية التأريخ في كونه أحد فروع المعرفة التي تحفظ ذاكرة الأمم، فكان يأمر خواص كتابه والذين يصحبهم في حروبه بتقييد الحوادث باعتبارهم من صناعها وشهود عيان على مجرياتها، فقام الأديب أحمد بن هطال التلمساني وهو أحد جهابذة علماء معسكر في القرن الثامن عشر بتتبع غزوات الباي لقبائل الهضاب العليا المتمردة عن طاعته في مؤلف وسمه بـ: رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، فصاغ الأحداث نظماً ونثراً، وألف أبو راس الناصر كتابه درء الشقاوة في الرد على ثورة درقاوة والتي كادت أن تطيح برأسه .

وكلف أيضاً كاتبه الخاص، مصطفى بن زرقة الدَّحاوي بتقييد حوادث فتح وهران سنة (1206هـ/1791م)، فصاغها في مؤلفه الرحلة القمرية في السيرة المحمدية شعراً ونثراً، وهو من صناع هذه الأحداث ويعد هذا العمل ضرباً من التأريخ العسكري أو السياسي، *وكان في العصور الإسلامية الوسيطة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطبقات الحاكمة التي كانت تفضل كتابة تاريخها في ظل حكمها* (29)، ويعد هذا العمل في كونه

وثيقة حية عن تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية وآدابها، فامتزاج الاختصاصات وتقاطعها يخصب المعارف ويحد ث التعاون والتكامل بينها.

لم يقتصر تشجيع الباي لخواص كتابه على الكتابة والتأليف ، بل حفز الطلبة على نسخ الكتب الهامة والمخطوطات النادرة ، والتأليف في المواضيع التي يختارها بنفسه والتي تناسب الظروف وتعود على طلبة العلم وأهله بالخير العميم والنفع العظيم ، فامتدت عناية الباي إلى طلبة العلم الملتحقين بالأزهر في إمدادهم بإعانات سنوية ضمن الهدية التي التزم بها لشيخ الإسلام المرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس (30) ، وقد أدت هذه المحامد إلى نمو حركة التأليف وإغناء المكتبات العامة والخاصة بأنفس الكتب التي هي عماد الحركة العلمية والأدبية في مفهوماها الشامل ، ولولا الحوافز التي قدمها محمد الباي لم يتحقق هذا ولا ذاك ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن للباي حظ في التأليف، أو شأو في الأدب نظمه ونثره في حدود معرفتنا ، والسؤال المثار هنا كيف كان وضع الأدب العربي في الجزائر في هذه الفترة من تاريخها ؟ ذاك ما نحاول الإشارة إليه في التالي.

عرفت الجزائر قبل مجيئ العثمانيين أدب الشروح ، وهذا الجنس الأدبي أساسه أن يؤلف الأديب نصاً نظماً أو نثراً في موضوع معين يشرحه بنفسه أو يشرحه غيره ، *من ذلك قصيدة المنفرجة* (31) التي تبارى الأدباء في شرحها تصديقاً وتعظيماً للكرامات الصوفية ، واستمر هذا النمط في العهد العثماني فمن مظاهره ، شرح قصيدة العقيقة للمنداسي التي شرحها أبوراس الناصر وغيره من الأدباء ، وكذلك منظومة أحمد الحلفاوي وهو أحد شعراء تلمسان التي هي وصف في تحرير وهران الأول ، شرحها عبد الرحمن الجامعي المغربي ، وقد ينطلي هذا النمط على شروح الحواشي ، أو ما يعرف بأدب الهامش ، والظاهرة ثرية بتآلفيها ومعارفها الأدبية والعلمية ، فهي جديرة بالبحث والدراسة من المهتمين بالأدب الجزائري .

ذاع صيت الأدب الشعبي في العهد العثماني في الأوساط الشعبية المتشبعة بالأفكار القديمة والخرافات السائدة في مختلف أوساط المستويات الدنيا لضعف مستواها العلمي ،ولعل مرد ذلك إلى القوميات التي توافدت على الجزائر من أعراق ولغات مختلفة،حكاماً ومحكومين، فتوارت اللغة العربية وتفشى فيها اللحن واللسان الدارج ،ضعف الشعر في هذا العصر وأصبح ركيك الأسلوب سخيف المعاني ضعيف الأغراض في كل البلدان العربية التي خضعت للعثمانيين ، لأن الحكام لم تعد تعنيهم الكلمة ،بقدر ما تعنيهم جبايات سنان السيوف، فانصرف الشعراء عن هذا الفن منصرفين إل البحث عن موارد الرزق في غير سوق الكلمة .

في ظل التقلبات السياسية وغيرها ، ظهرت حركة المداحين والقُوَّالين في أوساط العامة ، كردات فعل للعوامل المذكورة ، وقد تحمل هذه العلية على ذيوع ظاهرة التصوف التي رانت على العصر وطبعته بروحها ، *والتي لم يسبق أن عرفت البلاد (الجزائر) مثيلا له* (32)، فأغفل الأدباء والشعراء أحاسيسهم الوجدانية وخيالاتهم الابداعية التي أفرغت أدبيتهم من سماتها الفنية ، فالأثر الأدبي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بروح العصر ويتسربل بسبله مهما كانت أشكاله.

لم يلق الأدب العربي الفصيح منه والملحون اهتمام العثمانيين ، لأنهم يفتقرون إلى لغته التي ضربت سداً منيعاً بينهم وبين الفن وأهله في عمومياته ، فهم لا يفقهون شيئاً مما تجود به قرائح الشعراء ويتفوه به الخطباء ، فلم يتذوقوا بديع نظمه أو نثره، فلذلك لم تحفل قصورهم ولا مجالسهم أنسهم بالأدباء أو الشعراء ولم يتأسس عندهم البلاط الأدبي ، كما كان الشأن في تاريخ الأدب العربي ، أ م أن الأدب هو الذي خرب بيوتاً عامرة وقصوراً شامخة وذهب بدول كالأندلس ، *فأمست عبرة محزنة لمن جاء بعدهم وغدت مضرب الأمثال عبر الأجيال*،(33) في منظور بعضهم ، لو سلمنا جدلا بهذا الطرح ، فما عسانا القول عن النهضة الإيطالية التي اعتملت الحركة الأدبية سبيلا إلى نهضتها العلمية ، فكانت النموذج المحتذى لمجتمعات دول الجوار الأوروبية في نهضتها الأدبية ، أم أن القول يوحي أن صاحبه من المعتصمين بالمفهوم الخلدوني ، في أن الترف يفني الدول !متناسياً أن لكل نهضة فنية قوى سياسية واقتصادية تؤازرها وقوة عسكرية ترعاها في كل دولة على مر التاريخ ، وهي سر الاحتفاظ بالنجاح وتنميته في الدول المتقدمة.

انتعشت الحياة الثقافية والأدبية بالعنصر العربي الوافد من العدوة الشمالية (الأندلس)، وللعامل الجغرافي أثره في توجيه هذه الوفادة نحو السواحل الجزائرية الغربية قاصدين تلمسان التي كانت في جميع عصورها على صلة وثيقة بالجوهر المفقود، فتفاعل هؤلاء بالمجتمع تفاعلا مثمراً خلافاً للعثمانيين بمساهمتهم في تقوية مكانة اللغة العربية ونشرها في الأوساط الاجتماعية والطلابية، فيما أسسوه من مدارس على غرار مدرسة غرناطة الشهيرة، وفيما نظموه من حلقات التعليم بالجوامع الكبيرة أينما حلوا ، فلهم الفضل الأوفى في تنشيط الحركة الثقافية والأدبية ، في الربوع التي حلوا بها ، ولا زالت مآثرهم الفنية والثقافية ماثلة للعيان في المجتمع الجزائري في شتى ضروب الحياة وأنماطها.

لا ريب أن الحرب التي عمرت أجيالا متعاقبة بين الجزائر وإسبانيا، كان لها فعلها في تغذية الحراك الأدبي والشعري، عند أدباء الغرب الجزائري بوجه خاص، *خلافاً لزملائهم في الشرق الذي كان ينعم بالأمن النسبي*

(34)، تموضع هذا النتاج الأدبي بشكل لافت في موضوع الاستصراخ وبقية الضروب التقليدية كالرثاء والمديح والهجاء، التي ران عليها الطابع الديني، وتفاوت مستواها الفني من شاعر لآخر.

شكلت حاضرة وهران بؤرة الصراع لأهميتها الاستراتيجية واستعصائها على الفتح، من أجل ذلك هبَّ العلماء بدروسهم وخطبهم والشعراء بقصائدهم يصدحون بلسان واحد لإلهاب الحماس في النفوس واستصراخ الحكام استنفاراً للجهاد، ولو جمعت القصائد التي قيلت في ذلك لشكلت مدونة خاصة، تستوجب الوقوف والدرس، فمن ذلك نسوق نموذجاً للشاعر محمد القوجيلي الجزائري وهو يحرض الداي أحمد خوجة على الجهاد، البيت الأول من الطويل.

*وجَيشُ بَنِي عُثمَانَ مِنْ كُلِ قَائِدٍ ـ جُيُوشًا كَموجِ البَحرِ عِندَ التَلاَطُمِ*

والبيتين التاليين من الكامل.

*ثُمَ التَفِتْ نَحْوَ الجِهَادِ بِقُوَةٍ ـ والكُفْرُ قَاطِعُ أصْلِهِ بِذُكُورِ*

*أَضْرِمْ عَلىَ الكُفَارِ نَار الحَرْبِ لَا ـ تُقْلِعْ وَلَا تُمْهِلهُمْ بِفُتُورِ (35)*

والشاعر بن عبد الرحمن بن موسى يهنئ حسن بن خيرالدين باشا على فتح حصن مرسى وهران بقصيدة من الطويل جاء فيها:

*هَنِيًا لَكَ بَاشَا الجَزَائِرِ والغَرْبِ/ بِفَتْحٍ أَسَاسا الكُفْرِ مَرْسَى قُرَى الكَلْبِ* (36)

ختاماً تنبغي الإشارة في هذا المقام، أني لم أوف الموضوع حقه، إن أصبت فيما ذكرت فبتوفيق من الله وإن قصرت فذاك من نفسي وهو جهد المقل، لأن ساحة الأدب الجزائري في هذا العهد لا زالت بكراً، تنتظر أقلام الباحثين طرقها للكشف عن كنوزها الدفينة ما ظهر منها وما بطن شعراً ونثراً والتي لم يكشف النقاب عنها بعد، فهي جديرة بالدرس والمدارسة.

الإحالات والهوامش:

1 أحمد بن سحنون: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، الجزائر، 2013، ص 233.

2عميراوي أحميدة: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجاً) الجزائر، 2009، ص 90.

3 أحمد بن سحنون: ص 231.

4 أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 1 /1981، ص 188

5 نفسه 159.

6 أدخل العثمانيون المذهب الحنفي إلى بلادنا وعينوا له أئمة وقضاة لتسيير الشؤن الدينية لرعيتهم، ألغت الدولة الجزائرية المذهب بع الاستقلال.

7 أبو القاسم سعد الله: محمد العنابي رائد التجديد الإسلامي، بيروت، 1990، ص 67.

8 سعد الله: تاريخ الجزائر 1 / 171.

9 هو محمد بن خميس التلمساني (650 ـ 709 ه) (1252 – 1309) تولى رئاسة ديوان الإنشاء لأبي سعيد بن يغمراسن في الدولة الزيانية، ثم رغب عن الوظيفة، وهاجر إلى المغرب الأقصى ثم الأندلس وهو كاتب وشاعر مفلق، ذاع صيته مغرباً ومشرقاً. ينظر أزهار الرياض ج2 لأحمد المقري.

10 عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، 1980، 3 / 463.

11 محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، الجزائر، 1979، ص 235.

12 توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص 35.

13 أحمد صقر: مدنية المغرب العربي في التاريخ، تونس، د، ت، 310.

14سعد الله نفسه ص 189.

15أحمد صقر: نفسه، ص 358.

16 مذكرت أحمد الشريف الزهار: تحقيق، توفيق المدني، الجزائر، د، ت، ص 7

17 اشتهرت عائلة الفكون بالعلم والمال والصلاح في قسنطينة، ونالت منصب شيخ الإسلام والتي احتفظت به إلى عهد الاحتلال الفرنسي، حيث ألغي هذا المنصب من جهاز الدولة.

18 للمزيد في موضوع الهجرة الجزائرية نحو المغرب الأقصى في العهد العثماني، ينظر الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام للعباس بن إبراهيم ج 2.

19 هو سعيد عبد الله المنداسي التلمساني، شاعر الفصيح والملحون، اشتهر بقصيدة العقيقة في مدح النبي محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، للمزيد ينظر الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى.

20 محمد بن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية، الجزائر، 1981، ص 301.

21 مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزائر، 3 / 1989، ص 229.

22 تولى بكداش حكم الجزائر 1707 ـ 1710 م، كان عالماً فقيهاً صوفياً أديباً شاعراً، ماهراً في علم اللسان، تصدر للإقراء وتولى الخطابة في بعض جوامع الجزائر، ينظر التحفة المرضية.

23 أحمد بن سحنون: ص 467.

24 محمد بن ميمون: ص 301.

25 أبو الحسن حازم القرطاجني: منهج البلغاء وسراج الأدباء، تح، محمد بن خوجة، تونس، 1966، ص 162.

26 رحلة ابن زاكور الفاسي، ص 40، 41.

27 أحمد بن سحنون: ص 143.

28 نفسه ص 155.

29 طريف الخالدي: مفهوم التاريخ ومنهجه، بيروت، 1982، ص 25.

30 أحمد بن سحنون: ص 72.

31 قصيدة المنفرجة لصاحبها يوسف بن محمد بن يوسف، المعروف بابن النحوي التوزري نزيل قلعة بني حماد، توفي بها سنة 513 هـ، شرح القصيدة غير واحد منهم، أحمد بن عبد الرحمن النقوسي في مؤلف أسماه الأنوار المنبلجة من أسرار المنفرجة، ينظر الغبريني عنوان الدراية.

32 مختار حبار: الحضور الصوفي: في الجزائر على العهد العثماني، مجلة التراث العربي، ع 57، 1994، ص 51.

33 أحمد بن ميمون: ص 56.

34 أبو القاسم سعد الله: 1 / 132.

35 توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة، الجزائر، د، ت، ص 300.

36 ابن مريم: البستان، الجزائر، 1986، ص 132.